الكلاب

تنبح القمر

حكاية مسرحيّة في سبعة مشاهد

بقلم/ د. عبد الغفّار مكاوي

الشخصيات:

- الغريب
- معلم الاطفال
- ابنه
- ابنته
- المحقق
- المخبر
- ناظرة المدرسة
- حاكم المدينة (يسمع صوته فقط)
- (أطفال - نساء ورجال عابرون - نباح كلاب - ضحكات...)

فكرة

المسرحية مستوحاة من قصة قصيرة لصديق العمر الكاتب الفنان عبد الرحمن فهمي بعنوان «المسعور» ـ وقد نشرت في مجلة الهلال قبل أكثر من خمس عشرة سنة، وظلت تنمو في وجداني وتتشكل منذ ذلك الحين وتستكمل مشاهدها وشخصياتها وإيقاعاتها حتى ظهرت على هذه الصورة. إنها قصة معلم أطفال مسكين، قضى حياته المتواضعة الكسيرة مثالاً متجسداً ومغموراً في الوقت نفسه للقيم التي اختلّت ثم انعدمت في مجتمع مدينة أصابها سعار الاستهلاك وجنّت جنون الأنانية وتنكرت لكل ما هو إنساني أو يمت للانسان بسبب. ويصاب المعلم المسكين بمرض الكلب، مع أن المدينة كما يعلن حاكمها وأهلها خالية من الكلاب. فهل أصيب المعلم بعدوى من خارج المدينة التي لم يغادرها في حياته؟! أم من سكانها الذين «تكلّبوا» على الرغم من اعتزازهم بخلوّ مدينتهم من الكلاب؟! وها هو الكلب الوحيد في المدينة أم هو الانسان الوحيد؟! أسئلة كثيرة تطرحها محنة أخيرة. والانسان قادر على تجاوز المحن إن أراد. فهل تقدر المدينة على تجاوزها؟

ـ١ـ
بداية الحكاية

(مكان خال، يملأ باستمرار بقطع ديكور بسيطة تناسب المشهد ثم يفرغ منها لمشهد آخر جديد. ضوء القمر غلالة فضية ساحرة ترف أجنحتها على كل شيء. يسمع نباح كلاب بين الحين والحين. يدخل الغريب، وهو رجل نحيل وطويل، في ثياب تشبه خرق الصوفية والفقراء وشعراء العصور الغابرة، يخاطب الجمهور ويشترك عند الضرورة في أداء دور أو أكثر، ويعلّق على ما يحدث أمامه أو يبرره أو يثور عليه، ولكنه

الموت فأدعوه ليُمَثِّل أمامكم . . فالضرورة تقضي بأن نعيد الحكاية بعد أن مات البطل وتمت فصولها . . أنت . . أنت . . يا صديقي . . . (يظهر معلم الاطفال. رجل قصير منكسر في ثياب مهملة قديمة . . يخطو متأففا ساخطا . . يجيب على أسئلة الغريب بكلام مفكك تتخلله غصة تندّ عنها بحة أليمة . .)

غريب : تقدم . . تعال . .

المعلم : من يطلبني في هذا الوقت من الليل؟

غريب : صاحبك ونجيُّك . .

المعلم : ليس لي صاحب. كلكم تخليتم عني . . ؟

غريب : لا تتسرع بالحكم . .

المعلم : الحكم صدر وأعلنه المحقق . . ؟

غريب : سنعيد النظر فيه . . أنا وهؤلاء السيدات والسادة . . (ينحنى للجمهور)

المعلم : دعني في حالي . . ألم تتركني راقدا في المشرحة . .

غريب : الضرورة الفنية أقوى من كل ضرورة . .

المعلم : حتى من الموت؟

غريب : حتى من الموت . . هيا ارو حكايتك علينا . .

المعلم : ولماذا أرويها وأنت تعرفها؟ . .

غريب : واشتركت فيها أيضاً لكن من حق هؤلاء . .

المعلم : فليدعوني في حالي . .

غريب : (يجذبه الى مقدمة المسرح فيرى الجهور) لقد حضروا بالفعل . .

المعلم : (مذعورا) دعني . . دعني أنا الآن في المشرحة . .

غريب : لكن الكلاب ما تزال تنبح . . .

المعلم : لا لا . . لا تغضبهم . . لا ترفع صوتك حتى لا يسمعك حاكم المدينة . . أنا الكلب الوحيد في مدينتهم . . اطمئنوا أيها السادة . .

في النهاية لا يعدو أن يكون عابر سبيل غريب، يدخل المدينة الصغيرة ويخرج منها بمحض المصادفة، وكأنه عراف أو رسول جاء بنبأ ثم انصرف الى حال سبيله. .)

الغريب : معذرة. . معذرة يا سادتي وسيداتي. . أريد أن أتكلم اليكم فتمنعني الكلاب. . هل تسمعونها؟ (يتردد نباح الكلاب) مع أنني لست كلبا مثلها، ولا كلبة (يتلفت حوله ثم ينظر الى جسمه) أو هذا على الاقل ما أشعر به منذ ولادتي. . ما أنا الا عابر سبيل غريب. . دخلت هذه المدينة بمحض المصادفة. . نعم نعم. . هش. . انها لا تريد ان تسكت. . كأن بينها وبيني ثأراً. . شجعني على دخولها ان الحراس طمأنوني. . سألوني فقلت لهم: رجل من أهل الله. . ماذا تقصد؟ قلت أسبح بحمده وأتأمل. . قالوا: صوفي أنت؟. . قلت فقير أسعى في الارض. . قالوا: الخير كثير. . ما دمت لا تنبح ولا تعض. . قالوا ايضا: مدينتنا بلا كلاب. . كل ما نحرص عليه ألا يدخلها كلب. . . ومع ذلك فها هي تنبح. . (يرتفع نباح الكلاب) هل تسمعون؟ وما أردت الا أن أحكي لكم حكاية. . حكاية كلب في المدينة التي خلت من الكلاب. . المدينة التي أمر حاكمها ـ رعاه الله ـ أن تُباد منها الكلاب. . اسمعى أيتها الكلاب. . أسمعوا أيها البشر. . (يهدأ النباح) لقد هدأت قليلا. . (ينظر حوله) لعلها يئست بعد أن رأتني عظما بلا لحم. . أو لعلها (ينظر للسماء فيرى القمر) كما هي العادة تنبح القمر. . انه يسطع في السماء كقطعة لحم طازجة حمراء. . . ظلت تنبحه حتى أدركت أنها لا تستطيع أن تعضه. . معذرة فقد ظلمتها. . أو لعلي أخطأت ولم تنبح أبدا. . أكرر معذرتي لكم ايضا. . قلت سأروي لكم حكاية. . حكاية صديق عرفته وأحببته. . المفروض انه الآن يرقد في المشرحة. . وربما بدأ اللحاد يغسّله ويهيئه للقبر. . بعد أن أغلق باب القضية وأعلن الحكم. . لكنني سأستأذنكم وأستأذن قانون

اطمئنوا ودعوني في حالي.. أنا الكلب الوحيد.. أنا الكلب الوحيد (يبكي.. ويغص بكلامه.. يهوهو..)

غريب : لا تقل هذا.. ولا ترجع للهوهوة أيضا.. كان هذا قبل أن تموت.. وأنت الآن بحكم الضرورة..

المعلم : ماذاتريدون مني.. لقد سلمت بحكمكم (يئن ويبكي)

غريب : نحن لم نصدر هذا الحكم عليك.. (يتجه اليه ويسكته بحنان..)

المعلم : أصدره القاضي والمحقق والحاكم..

غريب : ونحن سنعيد النظر فيه..

المعلم : ستعيدون.. هذا فعل يدل على حدوث شيء في المستقبل.. وأنا الآن بلا مستقبل..

غريب : بل في الحال.. سنبدأ الحكاية في الحال..

المعلم : كل شيء حدث في الماضي.. كيف تستخدم فعل المضارع والمستقبل؟

غريب : (يلتفت للجمهور) معذرة.. انه مدرس نحو.. وهو حريص على القواعد حتى بعد موته.. ولكني سأستعمل معه فعل الأمر..

المعلم : (يقاطعه) هو ما دلَّ على حدوث شيء في زمن التكلم..

غريب : أحسنت.. تقدم!.. (بقسوة) قلت تقدم!

المعلم : (يخضع لأوامره.. يمدُّ لسانه ويحاول أن يقعى عند رقبته ويئن ككلب)

غريب : لا لا.. لم تصبح كلبا بعد.. لا تنس أنك الآن صديقي.. لا تنسَ..

المعلم : (يقف على قدميه.. الغريب يجلس على سور حجرى بجانبه) يوم تعرفت عليك؟

غريب : ليلة تعارفنا.. هل تذكر..

المعلم : نعم.. نعم.. كانت ليلة مقمرة..

غريب : وبدأت تشكو حالك..

المعلم : لا أحد يحس بي.. لا أحد يشاركني في شيء..

غريب : وكانت الكلاب تنبح (يرتفع نباح الكلاب)

المعلم : أذكر.. أذكر.. وقلت لك.. كل الكلاب تعضني..

غريب : وارتعشت رعباً وقلت: هل قلت الكلاب؟.. أخشى أن يسمعنا جندي أو مخبر..

المعلم : وظلت الكلاب تنبح.. (الكلاب تنبح)

غريب : وقلت لك ليس في المدينة كلاب...

المعلم : طبعا.. طبعا.. وهل كنت أجهل هذا؟ مدينتنا والحمدلله خالية من الكلاب.. لابد أن العيب في أذني...

غريب : (يقف للجمهور) لكنني كنت أسمعها... شككت أنا أيضا في أذني.. مع ذلك قلت له: لا تكترث يا صاحبي.. الكلاب دائما تنبح القمر..

الغريب : (ينهض ويتجول في المكان وينظر للقمر)...

غريب : (يربت على كتفه كصديقين قديمين) اطمئن.. هذا دأبها منذ الأزل.. أنسيت ما قلته لك؟..

المعلم : (يجلس يائسا) قلت إنها لا تعض..

غريب : تذكر بيت الشعر؟

المعلم : لقد نبحوني وما هجتهم...

غريب : (مكملا): فما أدركوا غير ضوء القمر..

المعلم : وما الفائدة؟ الشهود كلهم ضدي..

غريب : سنسمعهم أيضا.. لن نترك أحدا منهم... هيه!.. أنتم.. (يتقدم الشهود واحدا بعد الاخر.. الزوجة.. والابنة.. والابن.. والمحقق.. والمخبر.. الى آخر الشخصيات التي ستظهر تباعا..)

غريب : (مشيرا اليهم ومتقدما بضع خطوات نحو الجمهور) ها هم الذين حكموا عليه.. لا نريد ان ندينهم.. ولا نريد كذلك ان نعفيهم من المسئولية.. نريد أن نعرف الحقيقة.. نعرفها للحقيقة والتاريخ..

غريب : أنا لا أعطل أحدا.. ثم إنها ليست مهزلة..

المحقق : بل مهزلة.. تريد أن تعيد التحقيق الذي تم..؟

غريب : نحن جميعا نريد إعادته.. (يشير للجمهور)

المحقق : (يلتفت للجمهور) عبثا يا سادة.. هذا عبث.. القانون لا يسمح بهذا..

غريب : قانوننا يسمح به..

أصوات متفرقة من الصالة : نعم قانوننا يسمح به..

ـ نحن نريد الحقيقة!

ـ ولا شيء غير الحقيقة!

ـ لماذا دفعنا ثمن التذاكر إذن؟

ـ انها مهزلة..

ـ بل مأساة..

ـ مهزلة أو مأساة.. استمروا..

ـ حرام اضاعة وقتنا..

المحقق : انتظروا.. انتظروا.. اسمعوا القرار الاخير في القضية ثم احكموا. (يبحث في جيوبه..)

صوت : نريد أن نعرف القضية كلها..

المحقق : ولكن القرار صدر..

صوت : قلنا القضية كلها..

المحقق : أغلق ملف القضية.. ختم عليها بالشمع الأحمر...

صوت * : جئنا لنسمع ونرى..

صوت : لم نر رواية قصيرة الى هذا الحد!

صوت : لا تعطلنا يا رجل..

هذه هي زوجته.. (تتقدم الزوجة ناحيته صامتة) امرأة تستقبل سن الشيخوخة..

الزوجة : أنا في الثالثة والعشرين!

غريب : وابنك أيضا في الثالثة والعشرين.. سنرى هذا بعد قليل..

الزوجة : سمعتم كلامه.. انه كلب وابن كلب..

غريب : لا تتسرعي.. المدينة حفظها الله وحفظ الحاكم..

الزوجة : خالية من الكلاب.. ولكنه كان طول عمره..

غريب : قلت لا تتسرعي.. ابتعدي الآن قليلا وسنسمع غيرك..

الزوجة : لن يقولوا غير ما قلت.. أنا أعرفه أكثر منهم. عاش كالكلب ومات كالكلب..

غريب : (بعد ان ابتعدت المرأة) امرأة شرسة.. مع ذلك لن نتسرع بالحكم (ملتفتا للابنة التي تقدمت نحوه في استخفاف وكأنها تبدى فتنتها) وأنت؟

الابنة : هل تكلمني؟

غريب : (بنفاد صبر) وهؤلاء (مشيرا للجمهور) ينتظرون ردك..

الابنة : أنا مت من الضحك عليه..

غريب : متى كان هذا؟

الابنة : عندما نبح كالكلب المسعور.. أليس منظرا يميت من الضحك؟

غريب : أبوك ينبح فتضحكين؟

الابنة : ولم لا؟ وأسرعت وراءه بالكاميرا وأخذت له صورا نادرة.. (تخرج ألبوما من الصور وتريد عرضه عليه وعلى الجمهور..)

غريب : فيما بعد.. فيما بعد..

الابنة : أنا صحفية أؤدى واجبي.. هل تريد أن يفوتني هذا المنظر؟

غريب : بالطبع لا..

الابنة : فهمتني.. أنا أحب الأذكياء.. (تعرض فتنتها عليه..)

غريب : وماذا فعلت بالصور؟..

الابنة : عملت ريبورتاج آ.. وان (A/one)

غريب : لا أفهم لغة الفرنجة...

الابنة : حسبت أنك ذكي.. خسارة..

غريب : (منصرفا عنها) صدقت.. نعم خسارة.. وأنت (للابن الذي يتقدم..)

الابن : ماذا تريد يا سيد؟

غريب : ماذا فعلت عندما رأيت أباك ينبح؟..

الابن : وماذا تريدني أن أعمل؟

غريب : أنا الذي يسأل..

الابن : ارتديت ملابسي وذهبت الى عملي..

غريب : ألم تفكر في منعه؟

الابن : ولماذا أمنعه؟ كل انسان حر في تصرفاته..

غريب : ألم يخطر ببالك انه يمكن أن يعض أحدا؟

الابن : وهل أصبح المهندسون مختصين بعلاج مرضى الكلب؟

غريب : المدينة كما تعلم خالية من الكلاب..

الابن : سمعت هذا أيضا.. والفضل للحاكم ورئيس المدينة ورجال الشرطة..

غريب : ولماذا لم تعاونهم؟..

الابن : قلت لك أنا مهندس.. ثم إني أعاون نفسي وحسب...

غريب : تعاون نفسك فحسب.. شكرا.. لا نحب أن نعطلك..

المحقق : (يظهر آتيا بخطوات مهيبة وهو يرفع صوته) أنت تعطل الجميع وتضيع وقتهم.. ما هذه المهزلة؟

غريب : ارجوكم.. ارجوكم.. شكرا لكم.. هؤلاء السادة سيظهرون بعد قليل.. كل واحد منهم سيشارك في الحكاية.. الزوجة والابنة والابن.. (مشيرا اليهم وقد اصطفوا وراءه) وهذا الرجل المحترم الذي تشرفت بمعرفته (ينحني للمحقق) أشهد انه بذل جهدا عظيما.. وسيظهر أيضا أشخاص آخرون.. أما معلم النحو الذي مات في الواقع...

صوت : (من الجمهور) كيف يظهر وهو ميت؟

صوت آخر : يا أخي ضرورة.. ضرورة فنية..

صوت آخر : (متأففا) جمهور آخر زمن.. لماذا يدخلون المسرح وهم لا يفهمون فيه؟

غريب : أرجوكم.. أرجوكم.. الموضوع خطير.. ولابد أن تترك الفرصة للجميع.. كل ما نريده هو الحقيقة.. الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة.. هل هذا المعلم هو الكلب الوحيد في المدينة؟.. ومن أين أصابته العدوى وليس في المدينة كلها كلب واحد؟..

(يتجه ناحية المعلم.. يأخذ بيده ويحاول أن يهدئه.. يتقدمان ناحية السور الحجري بينما يئن المعلم وتسمع منه غصة مبحوحة بين كل كلمة وأخرى)

غريب : قلت هون عليك.. انت تبالغ بغير شك..

المعلم : أعطيتهم عمري... علمت الاجيال....

غريب : اهدأ.. اهدأ.. أنظر للقمر واهدأ...

المعلم : أنظر للقمر (يبكي.. يسمع نباح الكلاب.. فيزداد بكاؤه..)

غريب : تذكر انها تنبح القمر. لكنها لن تعضه.. (ينصرفان ويد غريب على كتفه. وينصرف الجميع....)

- ٢ -

الاحالة للمعاش

(قطعة ارض صغيرة على شاطيء النهر.. فيها زاوية متواضعة يغطي مساحتها حصير أشد تواضعا.. يظهر الغريب وهو يتمتم على مسبحة في يده.. يخاطب الجمهور قائلا..)

الغريب : مازلت أذكر يوم التقينا لاول مرة. كان ذلك بعد دخولي المدينة بأيام قليلة. الفجر ينفث أنفاسه المنعشة. والشمس لم تزل محتجبة وراء السحب السوداء التي تجري كالقطعان المذعورة. فرغت من صلاتي وسلمت فوجدته خلفي، تلونا الآيات وتمتمنا بالدعوات، سلمنا وتعارفنا، والغريب يأنس لغريب. قلت له أسمي فقال..

المعلم : اسم غريب والله..

غريب : يناسب من يقف على باب الله.. واسم الكريم؟

المعلم : مأمون أمين مأمون..

غريب : اسم على مسمى.. مأمون وأمين.. هل تأتي هنا كل يوم؟

المعلم : هذه أول مرة.. ظللت أمشي طول النهار والليل على غير هدى..

غريب : حتى وجدت الآمان والايمان..

المعلم : اللذين لم أجدهما في أي مكان..

غريب : ولماذا لم تذهب الى بيتك؟

المعلم : بيتي؟..

غريب : لابد أن لك بيتا وأسرة..

المعلم : زوجة وبنت وولد... ولكن ما الفائدة؟

غريب : ما الفائدة؟..

المعلم : اذا كانوا يعاملونني كالكلب..

غريب : الكلاب اختفت من مدينتكم.. هذا ما سمعته وشجعني على

دخولها . .

المعلم : وهو ما تقوله الصحف . . وتهتف به مكبرات الصوت . . ويكتب بالاحرف الكبيرة على اللافتات والاعلانات . . هل تعرف انني تمنيت الليلة لو قابلت واحدا منها . .

غريب : واحدا منها؟

المعلم : من الكلاب . تمنيت لو صادفت كلبا واحتضنته وشكوت له وبكيت معه . . ومت أيضا معه؟ .

غريب : من حسن حظك انك لم تجده . . . .

المعلم : نعم لم أجده . . فالكلاب كلها خرجت من المدينة أو أخرجت أو قتلت عن آخرها . . أصبحت الآن ذكرى في خيال العجائز مثلي . . كلمة غامضة في اسماع الشباب والاطفال . .

غريب : واختفى السعار . . وأغلقت المستشفى الوحيدة التي كان ضحاياه يزورونها بالمئات كل يوم . .

المعلم : ومع اني اشتقت أن ألقى واحدا منها . . هل تصدق انني كدت أتصور نفسي . .

غريب : لا . . لا تكمل . .

المعلم : عندما تحس أنك ضائع وضال في الشوارع والطرقات . . أن أحدا لا يشعر بك ولا يحتاج اليك . . ألا تشعر عندئذ . .

غريب : معاذ الله . . قلت لا تكمل . .

المعلم : واشتد عليَّ الالم حتى كدت أجرى في الشوارع وأصرخ وانبح كأنني . .

غريب : أرجوك لا تخرجها من لسانك . . ولماذا لم تذهب الى بيتك؟

المعلم : هل تتصور أن أجد فيه أحدا يحس بي . .

غريب : أتصور انك ستجد فراشا تنام عليه . .

المعلم : وكيف أنام بعد كل ما حدث؟

غريب : وماالذي حدث؟ لقد نسيت يا أخي . .

المعلم : أن تسألني عن عملي.. لا داعي للسؤال عن عمري فأنا كما ترى على المعاش.. خرجت عليه مرتين..

غريب : تخرج على المعاش مرتين؟.

المعلم : مرة من سنتين.. ومرة من يوم واحد..

غريب : وعملك؟ مهنتك؟

المعلم : معلم أطفال.. النحو والصرف والخط والدين والاملاء.. أربعين سنة وأنا أمسح السبورة كل صباح وأكتب في أعلاها: قواعد.. أربعين سنة وأنا أهتف بالصغار: القواعد يا أولاد.. كل شيء له قواعد.. كل شيء.. اذا اختلت القواعد دب الخلل الى الانسان وزلزلت أركان الارض وأعمدة الكون.. القواعد يا أولاد هي هيكل اللغة واللغة هي هيكل الوجود. من لم يعرف الحروف لم يعرف الكلمات. ومن لا يعرف الكلمات لا يعرف الجمل.. ومن لا يكون الجمل المفيدة يضطرب العالم في عينيه ويسقطه العالم من عينيه. القواعد هي الاساس يا أولاد. والذي يهمل الاساس ينهار السقف على رأسه. القواعد يا أولاد.. القواعد يا أولاد.. حتى بُحَّ صوتي وتحشرج وصارت تعاودني الغصة كلما تكلمت... (يغص بكلماته.. يسقيه الغريب من زمزمية يخرجها من جيبه)

غريب : أكمل أكمل..

المعلم : أحلت للمعاش من سنتين.. شعرت بالحزن ولكن شعوري بالرضا كان أقوى.. لقد نجحت في رعاية أسرة وتربية أبناء.. ولو عرفتَ أن زوجتي مريضة من سنين طويلة بالسكر والكبد والضغط والاعصاب.. لو عرفت أن ابني تخرج مهندسا.. وان ابنتي اصبحت صحفية تكتب وتنشر صورها وتحقيقاتها في المجلات..

غريب : من حقك أن تشعر بالرضا والاطمئنان..

المعلم : وكل هذا بثلاثين جنيها. آخر مرتب قبضته قبل المعاش ربما لا تعلم

أنني بدأت حياتي بثلاث جنيهات..

غريب : الرضا رضا النفس..

المعلم : وبقيت أعمل وأنبح صوتي.. القواعد يا أولاد.. لا تهملوا القواعد يا أولاد.. مرت بي المحن وأنا أردد نفس العبارة وأكتبها بالخط النسخ على أعلى السبورة.. سقطت بلدي في النكبات وأنا لا أتوقف عن كتابتها وترديدها.. عشت كما عاش الناس في ظل الخوف والهزيمة وسمعت عن التعذيب في السجون.. وظللت أردد عبارتي وأعلمها للاطفال: القواعد يا أولاد.. الويل لمن لا يرعاها يا أولاد.. اللغة لها قواعد.. الصحة والمرض.. المشي والجري.. السماء والأرض.. الشمس والقمر والنجوم..

غريب : جلَّ شأنه.. وكل في فلك يسبحون..

المعلم : حتى كان الأمس فكشف عن عيني الغطاء..

غريب : ماذا تقصد يا مأمون؟

المعلم : اكتشفت أنني كنت مسخة الصغار والكبار.. انني تحفة تراكم عليها التراب في متحف التاريخ..

غريب : وأين كان هذا؟

المعلم : في المدرسة التي التحقت بها بعد المعاش.. لم أقل لك ان الابواب جميعا سدت في وجهي..

غريب : حتى دخلت من هذا الباب..

المعلم : وليتني ما دخلت..

غريب : ولماذا لا سمح الله..

المعلم : لأنني أهنت وطردت منه كأنني...

غريب : أرجوك.. استغفر الله العظيم.. (ينشج المعلم بصوت مرتفع ويرتج جسده.. يخفت الضوء ويتغير المنظر فنرى فصلا في مدرسة خاصة.

المعلم واقف امام عدد من التلاميذ ومن خلفه سبورة كتب عليها بخط نسخ واضح : قواعد)

- ٣ -

مطاردة الكلاب

الغريب : وبدأ مأمون الامين يحكي عما حدث له بالامس. لاحظت أن الدموع تترقرق في عينيه وأن الغصة تحطم الكلمات التي تخرج مهشمة من فمه. انظروا اليه وهو يقف أمام السبورة وينبح صوته كما هي عادته من اربعين سنة..

المعلم : اليوم درس القواعد يا أولاد. قبل ان اشرح الدرس تذكروا ما قلته لكم في الاسبوع الماضي..

تلميذ : أنا يا استاذ: كل شيء له قواعد. الحياة والموت. الصحة والمرض. السماء والارض..

تلميذ آخر : يا للملل! كل يوم نسمع نفس الكلام.

تلميذ ثان : خَلِّنا في الدرس يا استاذ!

المعلم : نحن في الدرس يا ولدي.. كل من يحطم النحو يحطم نفسه وبلده.. يهمل الاساس فيقع السقف على رأسه.. يتخلى عن انسانيته ويحيا كما كانت تحيا الكلاب..

تلميذ ثالث : افتح عينيك.. انه امامك!

المعلم : تجاهلت ما قاله الولد العفريت. ارتج عليَّ ولكني سامحته.. انهم أولادي.. وأنا أعلمهم القواعد.. ورفعت صوتي قائلا: ليس في مدينتنا كلاب يا أبنائي.. زميلكم رآها في مدن أخرى.. أما مدينتنا فقد تخلصت منها. مدينتنا بحمد الله خالية من الكلاب.. لندخل الآن في الدرس.. الجملة المفيدة نوعان: اسمية وهي تبدأ باسم.

وفعلية وهي التي تبدأ بفعل.. هل يمكنك أن تعطيني مثلا.. أنت يا بني..

تلميذ : الكلب يشرح الدرس..

التلاميذ : هاى.. هاى.. يشرح الدرس.. يشرح الدرس..

المعلم : تجاهلت ما قاله.. رأيت اللقمة المسمومة وخشيت الوقوع في الفخ.. أسرعت أقول: هذه جملة إسمية.. برافو.. من يعطيني مثلا للجملة الفعلية؟

نهض تلميذ آخر لا يقل وقاحة وقال:

التلميذ : يعض الكلب سيده..

المعلم : وصاح تلميذ ثالث تتدلى من معصمه سلسلة فضية ومن رقبته سلسلة ذهبية:

التلميذ : يعض سادته..

المعلم : صفق التلاميذ لقوله.. هاج الفصل وماج بالضحك والتصفيق.. قلت في هدوء: يعض الكلب الحصان.. صاح تلميذ مدلل ونادى على زميله السابق..

التلميذ : أنت حصان يا أشرف..

المعلم : عاود التلاميذ الضحك بصوت عال. حاولت أن أسكتهم فقلت: سأحكي لكم حكاية يا أولادي.. سنوضح الجملة الاسمية والفعلية بحكاية..

هتفوا جميعا:

التلاميذ : اسمعوا الحكاية..

تلميذ : نريد حكاية الكلب والحصان..

تلميذ : ومن الذي سيحكيها؟

تلميذ : الكلب الذي عضه طبعا..

تلميذ : الكلب أدرى بالكلاب...

المعلم : كتمت غيظي وسكت. أدركت لحظتها أن أعمدة حياتي تنهار على رأسي وتثير عاصفة من الغبار. تحاملت على نفسي وتلفت حولي كمن يقف وسط الأنقاض. وبحثت عن صوتي فلم أجد الا الغصة تبتلع الغصة. لكنني سحبته بكل قوتي وقلت:

استعموا يا أولادي. خالد فارس عربي. كان دائما يحب ركوب الخيل وينطلق بها في الصحراء. وكان له حصان يحبه كثيرا ويخرج به للنزهة وملاقاة الأعداء. ذات يوم ركب خالد فرسه وذهب يتحدى الأعداء. ولكنه نسي قواعدالفروسية التي تعلمها في صباه وشبابه فوقع في أسرهم وقيدوه بالسلاسل والحبال. ظل الحصان واقفا بجانبه ينظر اليه بعينين تملؤها الدموع.. قاطعني أحد التلاميذ وصاح:

التلميذ : والكلاب يا أستاذ؟

المعلم : الكلاب؟ نعم نعم.. أحاطت به الكلاب من كل مكان. لم يكن هناك من يتخلص منها كما تخلصت مدينتنا من شرها. لذلك هاجمته الكلاب وراحت تعضه وتنهش لحمه ولحم فرسه...

تلميذ : وماذا فعل الفارس يا أستاذ؟

المعلم : وماذا يفعل يا ولدي؟ ماذا يستطيع المقيد بالسلاسل والحبال؟ تألم وما زال يتألم..

تلميذ : والحصان العربي يا أستاذ؟

المعلم : ماتزال الكلاب تنهش لحمه، ومازال ينتظر..

تلميذ : وماذا ينتظر؟

المعلم : ينتظر فارسا يعرف قواعد الفروسية..

تلميذ : والكلاب يا أستاذ؟

المعلم : ماتزال كعادتها تنبح وتعض.. وتعض وتنبح..

تلميذ : هناك في التاريخ القديم..

تلميذ آخر : وفي البلاد الاخرى..

تلميذ ثالث : ولماذا البلاد الاخرى؟.

المعلم : أسرعت أقول: لأن مدينتنا ليس بها كلاب.. مدينتنا ليس بها كلاب.. فقاطعني التلميذ المدلل:

تلميذ : بها كلب واحد يا أستاذ..

المعلم : وأخذ التلاميذ يهتفون: كلب واحد يا أستاذ.. هاى هاى.. كلب واحد يا أستاذ هاى.. هاى.. اضطربت واحتبس صوتي. لم أعرف كيف أرد عليهم أو كيف أعيد النظام.. لحنوها ووقعوها وأخذوا يغنون... وفوجئت بالناظرة تدفع الباب وتدخل منه صائحة.. ما هذا؟ هل جننتم؟ ماذا تفعل يا أستاذ؟

المعلم : (يحاول أن يخرج صوتا فلا يستطيع)

الناظرة : ماذا تقولون؟ ما الذي قاله الاستاذ؟

تلميذ : شرح لنا درس القواعد..

تلميذ آخر : وكلمنا عن الكلاب التي تعض الفارس والحسان العربي..

الناظرة : والنشيد الذي تغنونه؟.

تلميذ : تعلمناه من الاستاذ.

الناظرة : صحيح يا استاذ؟ تكلمهم عن الكلاب ومدينتنا خالية من الكلاب؟ تذكرهم بماض ذهب ولن يعود؟ تريد أن يصبحوا كلابا.. أن تدخل الكلاب من جديد الى المدينة والمدرسة؟ لماذا لا ترد؟. اخرجوا الآن يا أولاد.. أخرجوا.. أريد أن أكون وحدي مع الاستاذ..

التلاميذ : (وهم ينصرفون) كلب واحد يا استاذ! هاى هاى! كلب واحد يا استاذ! هاى هاى!

غريب : وانصرف الاشقياء وهم يغمزون ويلمزون.. ترى من الذي علمهم كيف تنبح الكلاب وكيف تعض؟ لقد اقترب بعضهم منه وأخذ يعوى: هاو! هاو! ومال أحدهم على قدمه وقلد الكلب المسعور.. ولولا غضب الناظرة وصراخها فيهم لانقلب الفصل الى حظيرة كلاب

تنبح وتعض وتنبح.. تقدمت الناظرة غاضبة الى صديقي مأمون وقالت وهي تدمدم:

الناظرة : أنت المسئول عما حدث. هذه أول مرة في تاريخ المدرسة تمثل فيها هذه المهزلة.. لقد أحسست من أول يوم رأيتك أنك لا تصلح. هل نسيت انك في مدرسة محترمة، تلاميذها أبناء ناس محترمين؟ نسيت ان مجلس الآباء يضم وزراء ووكلاء وزارات، ورؤساء وأعضاء مجالس ادارة، وتجار أغنياء ومستوردين ومصدرين يلعبون بالعملات الصعبة نسيت ورحت تقدم العاب القرود أمام تلاميذ تربوا في «الفيلل» والقصور؟ وليتك اكتفيت بألعاب القرود.. لقد دخلت في جلد كلب وأخذت تنبح وتقفز أمامهم.. ولولا يقظتي وحزمي لغرزت أنيابك فيهم.. تكلم.. دافع عن نفسك.. لماذا تكتفي بالأنين واجترار لعابك؟ لماذا يغص حلقك بالكلام؟. ألا يمكنك أن تنبح أو تعوى؟ لا. لن تتكرر المهزلة.. ولولا دموعك لسلمتك لرجال الشرطة.. تعال ورائي في الحال.. تعال خذ حسابك ولا تريني وجهك بعد الآن..

غريب : لا ادرى هل وصفته بالكلب أم لا. ولكن كلامها كان واضحا بما يكفي. ومشى صديقي وراءها حتى وصل الى مكتبها. حدقت فيه من اعلى الى اسفل وتهكمت نظراتها على بذلته المترهلة وربطة عنقه التي تبلغ حجم الفيل وعينيه الجاحظتين وراء زجاج النظارة السميك... ولما يئست من أن يخرج من فمه حرفا مدت يدها بمظروف أصفر صغير. كانت فيه ورقة الاستغناء عن خدماته مع مكافأة التدريس.. فتح صديقي المظروف ووجد ثلاثين جنيها. تراكم الخجل مع اليأس والمرارة في نفسه فجلس الى جوار بيت قديم وأخذ يبكي. تمنى كما سمعتم لو كان كلبا ليموت في ظل جدار أو بجانب حائط مهجور. ثم نهض بعد أن أوغل الليل وأخذ يجوب الشوارع حتى شعر بأنفاس الفجر على وجهه فاتجه الى شاطىء النهر الوحيد في المدينة.. وهنالك

لمح شبحا يصلي فخلع حذاءه ووقف وراءه. . ثم تعارفنا كما رأيتهم وتكلمنا في الاحوال والاعمال حتى تخيلت انه استعاد الامان والاطمئنان. لكن الفأر لعب في عبي، والشيطان وسوس لي وسواس الشر. ماذا سيفعل الآن؟ هل يتجه الى بيته وزوجته وعياله؟ أم يستأنف جولته في غابة المدينة؟ وتبعته من بعيد حتى خرج من أبواب المدينة. . الى أين ذهب؟ لن تصدقوا حتى تروه وتسمعوه بأنفسكم. .
(يخفت الضوء رويدا رويدا حتى ينطفىء. ويعود بعد أن يبزغ القمر وينشر غلالته الشاحبة على المقبرة الكبيرة. .)

- ٤ -
قبر الأم

(منظر مقبرة كبيرة في ضوء القمر. المعلم منحنٍ بجانب أحد القبور. يتسلل غريب. من بعيد كالشبح ويقف قريبا منه. المعلم يواصل حديثه المتقطع الذي يشبه الهمس والمناجاة. .)

المعلم : لماذا ياأمي؟ لماذا ولدتني بلا ظفر ولا ناب؟ لماذا لم تعلميني أن أناطح الثيران، وأبقر بطون الذئاب، وأعض الكلاب قبل أن تعضني؟ لماذا لم ترميني في غابة أو صحراء، في عرين الأسد أو عش النسور أو جحر العقارب والافاعي والحيات؟ الحمامة لابد وأن تنقلب صقرا، والا قتلتها الصقور. الحياة قاتل أو مقتول، آكل أو مأكول، غالب يمتطي صهوة الجواد أو مغلوب يسحق تحت سنابكه. أشبعت غزالك من لبن الحنان حتى شرد في المراعي ونسى النمور والفهود والسباع والضباع المتربصة خلف التلال والروابي والاحراش. ماذا تفعل حمامتك في فك الثعبان؟ ماذا يملك غزالك مع ناب الاسد الفتاك وظلف النمر الغادر والضبع الخوان؟ هل تسرح الحمامة في زرقة الأثير؟ هل تحلم الغزالة

بالخضرة والربيع؟ انها تتكسر يا أمي وتتفتت. لماذا لم ترضعيها لبن الشراسة والوحشية؟ لماذا لم تدفئي صدرها العريان بالدروع والاسلاك والاشواك؟ لماذا لم تعطها الحربة والبلطة والسكين؟ ولماذا لم تضعي في يدي السوط والصولجان حتى لا يطعنني لصوص المقابر الملثمون؟ أهو خطؤك أم خطأ أبي؟ أيكون العيب في البذرة أم الرحم؟ تائه وسط وحوش الغاب أناديك: لم سقيتني من نبعك الطهور؟ لم لم تخلطيه بالسم والعفن وحمم الجحيم؟ تطالع عيني النجوم بينما يغرق جسدي في المستنقع. تنطلق روحي في جنة الجمال بينما يغرز القبح أسنانه في لحمي واسمي وسيرتي وعرقي. أمد يدي بزهور الامل فتمتد النصال لتطعن الماضي وتكفن الحاضر وتدفن المستقبل. حتى الصغار يا حبيبتي! حتى الصغار! أهدهد مهدهم فيسوون لحدي. يقولون السياسة والاقتصاد. يتكلمون عن الهزائم والنكبات. يلومون النحس والأقدار. لكن من يتذكر جثمان الضمير المدفون في صندوق قمامة الصدور؟ من يتذكر طير النفس الأخضر الملطخ بالوحل وهو يتخبط في دمائه في زنزانه الضلوع؟ مات الضمير، شُوِّه طير النفس الحبيب. أين يا أمي، أين مياه النبع الأبدي تصفيه! أي بحار الارض سيتسع لهذا الجبل من الأكدار وهذا السيل من الأقذار؟ (ينظر الى السماء ـ يلاحظ القمر وهو يصارع السحب السوداء) معذرة يا أمي. لا أدري ان كنت تسمعينني أم أني أعوى وأئن على قبر آخر. من يدري إنْ كان هذا هو قبرك أو قبر قتيل أو طفل أو سفاح أو فلاح أو مجنون أو لص أو سكير مسكين. لا أدري. لا أدري. أين أنت يا غريب لتقف بجانبي! أين أنت يا غريب..

(يتقدم الغريب وينحني عليه)

غريب : لقد عاد من غربته..

المعلم : أنت؟

غريب : نعم أنا. هل كنت تظن أنني سأتركك وحدك؟

المعلم : كيف عرفت أنني هنا؟ هل كنت تتبعني؟

غريب : وكان يتبعني شبح آخر.. (يظهر شبح من بعيد)

المعلم : ماذا تعني؟

غريب : (مشيرا الى الخلف) لا أعني شيئا. تائه مثلك أو غريب وعابر سبيل مثلي..

المعلم : أو لص أو مخبر.. لم أعد أخاف شيئا.. ليفعلوا ما يشاؤون..

غريب : اهدأ يا مأمون..

المعلم : ليقتولني أو يقيدوني بالسلاسل أو يضعوا الكمامة على فمي ويسحبوني في شوارع المدينة..

غريب : قلت لعله تائه مثلك أو عابر سبيل..

المعلم : (في حزن) كنت تتبعني؟..

غريب : النفس أمارة بالسوء..

المعلم : وماذا ظننت أن أفعل بنفسي؟.

غريب : خفت أن تغرقها في النهر أو في الخمر..

المعلم : ولهذا سِرْتَ ورائي..

غريب : حتى تورمت قدماي وتقطعت أنفاسي. سرت وراءك من حارة الى شارع، ومن شارع الى ميدان. غِبْتَ قليلا في أحد البيوت فقلت هو مسكنه وسيشفيه النوم من كل الأوجاع. وتريثت قليلا لأطمئن فاذا بك تخرج مسرعا وتجري بلا هدف. ظللت ألاحقك الى أطراف المدينة. ورأيتك تندفع نحو المدافن القديمة فأسرعت وراءك. هل تدري ماذا فكرت في هذه اللحظة؟

المعلم : أنني سأدفن نفسي بنفسي؟

غريب : لم تخطيء. ولهذا أسرعت لعلك تحتاج اليَّ..

المعلم : أصبت يا صاحبي. جئت أبحث عن أحد يقف بجانبي. تذكرت

الانسان الوحيد الذي لا يمكن أن يخذلني . .

غريب : ألم نصبح أصدقاء؟

المعلم : أجل أجل. لكن الفرخ التائه يبحث عن عشه . .

غريب : وهل وجدته . .

المعلم : كل الأعشاش سواء. على كل منها شاهد مكسور أو متآكل. رحت أجري بينها وأهتف: أمي! أمي! وكأني أنتظر صوتا من وراء القبر. انحنيت عليها جميعا وتفرست في الاسماء المكتوبة على قطع الرخام والمحفورة في الاسمنت المتداعي. لا. لم يكن بينها اسم أمي. حاولت أن أتذكر موقع قبرها. حين كان أبي يأخذني من يدي لزيارتها كنا ننحرف الى اليمين من البوابة الرئيسية وكوخ الحارس ثم ننعطف بجوار قناة جافة ونجتاز ضريح أحد الاولياء. بحثت عن القناة والضريح فلم أجدهما. حتى كوخ الحارس اختفى كأنهم أحالوه مثلي للمعاش. غربت الشمس وأنا أتخبط بين القبور. . أنادي فيجيبني الصدى ونعيق البوم. بدأ الظلام يزحف وأنا اتخبط في خوفي وارتعاش قدميّ ووجيب قلبي! واشتد الظلام فجلست أمام هذا القبر وأنا أخفي نفسي عن نفسي. هل تصدق أنني خشيت أن يكون قبرها؟ وبماذا أعلل نسياني وخجلي وجحودي؟

غريب : وفاء يليق بمن سمتك أمين . .

المعلم : (صائحا) بل بجرو يبحث عن أمه . .

غريب : معاذ الله . . ألا ترفع رأسك للسماء . .

المعلم : أعرف ما ستقول. أرفع رأسي لأرى القمر. . لأتطلع في وجهه الضاحك من نباح الكلاب. . لقد جئت لأبحث عنها. . لأدفن وجهي في صدرها . .

غريب : ولكنك لم تجدها ولم تبك . .

المعلم : كنت أناجي نفسي وأناجيها . .

غريب : أم كنت تلومها؟.

المعلم : لأنها لم تلد أسدا أو ذئبا بدلا من . .

غريب : أستغفر الله . . نسيت أنك معلم؟ .

المعلم : نسيت كل شيء . .

غريب : حتى القواعد؟ .

المعلم : انهارت فوقي . . (يغص بكلماته)

غريب : وتركتك عاجزا عن تكوين جملة مفيدة؟

المعلم : (صارخا) تركتني وحيدا . هل جربتَ أن تكون وحيدا في فك تنين يبتلع الملايين؟ وحيدا في بيتك، مع زوجتك وابنك وابنتك؟ وحيدا لا يأكل أحد معك ولا يتحدث أحد اليك ولا يبادلك ابتسامة ولا دمعة ولا سيجارة؟ هل جربت أن تعيش هكذا أسابيع وشهورا وسنين؟ وحدك وحدك وحدك . .

غريب : الانسان لا يكون وحده ابدا . .

المعلم : هل قلت الانسان؟ . . (صمت)

غريب : لماذا سكت؟

المعلم : لم أسمع هذه الكلمة من سنوات طويلة . . الانسان . . يا لهذا الرنين العجيب . . قلها مرة أخرى . .

غريب : أكل هذا لأنك مررت على بيتك؟ .

المعلم : ولم أمكث اكثر من دقائق . .

غريب : ماذا حدث؟!

المعلم : ما يحدث كل يوم وكل اسبوع وكل شهر وكل عام . سلمت فلم يرد أحد . ناديت فلم يفتح باب . وضعت الجنيهات على مائدة الصالة وهتفت : نقود . نقود . هذه هي مكافأة المعاش . تسللت زوجتي من حجرة نومها وصاحت : لا داعي للازعاج . الاولاد نائمون . هتفت : نائمون! نائمون! ألا يستيقظون أبدا؟ أليس من حق الأب أن يرى

أولاده؟ كشَّرت عن أسنانها الصفراء وقالت: الأب؟ وما هذا؟ قلت: ثلاثون جنيها. مكافأة الاحالة للمعاش. . زغردت هاتفة: تعالوا يا أولاد! أنظروا ما جاء به الغراب! ثرت غاضبا ولكنها اندفعت تطرق الابواب بعنف. صحت البنت من نومها وهي تقول: أليس في الدنيا راحة؟ ماذا تريدين يا ماما؟ قالت: أبوك أحضر لك ثمن الشقة والذهب والأثاث وفستان الزفاف. . تحركت البنت الى المائدة وقلبت الجنيهات بين يديها. صفرت بفمها وضحكت ثم عادت لتنام. خرج أخوها بصدر عار وهو يصيح: ألا تكفان عن الشجار؟ هتفت أمه: أبوك أحضر معه خلو الرجل والمهر الشبكة وتكاليف المكتب الجديد. اتجه الولد الى المائدة ونظر الى الجنيهات وأخرج صوتا من أنفه ثم رجع لنومه. ومددت يدي في جيبي وأخرجتها وقلت لزوجتي قبل أن أقصف الباب ورائي: هذه هي الحبوب والدواء. . .

غريب : وتذكرت أمك فجئت تبحث عنها وتضع الذنب على رأسها؟

المعلم : أمي. . أمي. . (يبكي. .)

غريب : لا تنس يا ولدي أنك على المعاش. .

المعلم : أنني وحيد. .

غريب : لست وحيدا يا ولدي. .

المعلم : كلب ضال في مدينة مسعورة. .

غريب : بل قمر يسطع في سمائها. .

المعلم : ستنبحني الكلاب. .

غريب : (يأخذه من يده) لكنها لن تعضك!. . (ينهض في حنان. يضع يده على كتفه وينصرفان. يستدير الغريب ويقول:)

غريب : لم نكد نخطو عدة خطوات حتى رأيت الشبح المتلصص يهرب من بوابة المقبرة: مشيت مع صاحبي صامتين حتى وصلنا الى بيته. قلت له وهو يترنح من التعب: تذكر موعدنا. تذكر أن الكلاب تنبح القمر. . قال

وهو يبتسم: أتظن أنها لن تعضه؟ وفجأة صرخ كمن لدغه العقرب أو غارت في قلبه السكين: عضتني الملعونة.. حاذر يا غريب... حاذر من الكلاب.. وأسرع داخلا من الباب... وتركني في الليل والظلام.. (يسمع نباح الكلاب).

ـ ٥ ـ
القبض عل المسعور

(صالة في مسكن مأمون أمين مأمون تظهر مائدة عليها أطباق وأكواب فارغة وبقايا خبز بعد العشاء. الى اليسار كراسى وكنبة من طقم قديم يجلس عليها الزوجة والابن والابنة ويتحدثون. يد لف الغرب من باب خلفي ويقدم المشهد..)

غريب : تخلف عن موعده في الفجر على شاطيء النهر. لم أره الا عصر اليوم التالي وهو يجرى ويلهث ويخرج من أتون صدره الحمم والنيران. جرى الناس وجريت وراءه.. ما الذي دفعه الى هذا؟ ما الذي أشعل فيه البركان؟ لم أكن بالطبع معه عندما دخل مسكنه. لكنني فهمت بعد ذلك من إشاراته وبحاته واختلاجاته أن الامور سارت على هذا الترتيب. تعال يا صديقي. تعال يا مأمون. أعرض ما حدث علينا بالتقريب. أدر العجلة للماضي.. هيا يا مأمون.....

مأمون : (يدخل الصالة وهو يعرج ويتحسس بطن رجليه وقدميه. يحاول أن يلقى تحية المساء فلا تخرج الا غصَّة تسمع منها سين أو صاد)

غريب : لابد أنه ألقى تحية المساء. ولابد أن الألم تمكن منه وحبس لسانه. جلس على المائدة. بدأ يئن وهم لا يلتفتون. بل ربما لم يشعروا به ولم يكلفوا أنفسهم أن ينظروا اليه.

الابن : لا لا.. لا تحملي هماً من هذه الناحية. كل شيء تمام التمام. العقد في جيبي والتوقيع الليلة..

الابنة : ولماذا السرعة؟

الابن : ولماذا البطء أو التأجيل؟ الليلة نسهر في «الكهف السحري» ويتم التوقيع . .

الابنة : هل تثق فيه؟

االابن : وهل يشك أحد في منجم ذهب؟

الزوجة : أنا لا أطمع في ذهب. كل ما أريده . .

الابن : أعرف. أعرف. عشرة آلاف جنيه . .

الزوجة : خلو رجل فقط. وليته يرضى . . .

الابنة : وأحلق عندك يا ماما . . يا أعظم وأجمل «كوافير» . .

(تقوم الابنة وتقبلها . . تتجه الى أخيها وتقبله وهي تقول . .)

وأنا؟ . ألم تفكر في؟ . .

الابن : دماغك ناشفة . .

الابنة : أترضى أن أبيع حريتي؟

الابن : منجم ذهب . . ستغرفين منه ونغرف معك . .

الابنة : وحريتي؟ . .

الابن : أدخلي المنجم ثم فكري فيها . .

الابنة : أفكر فيها مع شيخ في الستين؟

الابن : قولي لها يا ماما.

الزوجة : كِبْر وفقر لأبيها . .

الابن : (يتلفت الى أبيه ويضحك)

الابنة : (تلتفت اليه وتضحك بصوت عال)

الزوجة : (تلفت اليه وتصيح) عندك «الشوربة» . . ليس هنا غيرها . . .

غريب : كان يتابعهم طول الوقت بعينيه. تجحظان قليلا ويمدُّ رقبته ويحاول أن يخرج كلمة. يغلبه الألم فيتأوه، تقف الغصة في حلقه فيصفر أو يتنحنح أو يدمدم. يواصلون الضحك ثم يستمرون:

الابن : ضعي عقلك في راسك

الابنة : اعرف انت خلاصك..

الابن : شقة على النيل بمائة ألف جنيه..

الابنة : قررت احالة الفتنة للمعاش؟..

الزوجة : يكفينا الهم الثقيل..

غريب : سخسخوا على نفسهم من الضحك. أشاروا اليه فرفع عينيه عن طبق الشوربة. لم يروا الدمعة تلمع وتسقط فيها.

الزوجة : «البوتيك»؟.. «البوتيك».. ربع قرن وأنا انتظر..

الابنة : ونسيت «الكوافير»..

الابن : غالية والطلب رخيص.. «البوتيك والكوافير».. «الشيك» سيكون عندك الليلة..

الابنة : وأنا؟ نسيت «الكاميرا»؟..

الابن : «ماركة زايس» وحياة عينيك..

الابنة : لا تساوي صورتي على الغلاف..

الابن : «والشيك» سيكون في جيبك بعد يومين..

الابنة : تحيا الشهرة.. يحيا المجد..

الابن : منجم ذهب.. منجم ذهب..

الزوجة : زحفنا طول العمر على البطون..

الابن : ستكون «المرسيدس» تحت أمرك..

الزوجة : عشنا في الكهف سنين..

الابن : «الفيللا» تتسع للجميع..

الزوجة : نحن في حلم أو علم؟

الابن : هذه مهنتنا يا ماما. نحول الحلم الى علم..

الزوجة : وأعيش وأسكن في «الفيللا»..

الابن : سنعيش فيها معا..

الابنة : (مشيرة لأبيها) والغزال القديم؟

الابن : والنحو الصرف؟ . . .

غريب : وقفت في حلقة اللقمة والشوربة. أخذ يسعل ويسعل ويحاول أن يخرج صوتا أو كلمة. . بدأ الصفير المتقطع يندفع من صدره وحنجرته وفمه. تلوى وانتفض وأخذ يحك قدمه ورجله. ثم كشر عن أسنانه وراح ينبح حدق في وجوههم واحدا بعد الآخر ثم أدار ظهره وصفق الباب من ورائه.

الزوجة : يبلعه على راحته. .

غريب : وذهبت الزوجة الى حجرتها وأغلقت عليها الباب بالمفتاح. وتمطى الابن ودخل الحمام ليجهز نفسه لموعد الليلة.

الابن : غريب يا عم مأمون. . ولا غريب الا الشيطان. .

غريب : وانطلقت الابنة تجرى الى حجرتها المشتركة مع أمها فوجدتها مغلقة بالمفتاح.

الابنة : افتحي يا ماما. . بسرعة. . بسرعة. .

صوت الأم : لا أريد أن أرى أحدا. .

الابنة : وأنا أريد «الكاميرا». . فرصة ذهبية يا ماما. فرصة ذهبية. . وحياتك لا تضيعيها علي. . (تنصرف الابنة وتخلو الصالة. يستأنف عابر السبيل الغريب حديثه ويتقدم الى السوط. .)

غريب : كان صديقي قد اندفع كالسيل الى الخارج. تراكم الزبد على فمه وبدأت الحمم تخرج منه. هاجت في صدره شياطين الجحيم فراحت تقذف اللهب في كل اتجاه:

صوت المعلم : كلاب وكلاب وكلاب. . هاو. . هاو. . هاو. . تزحفون على البطون وتملأون البطون وتعيشون للبطون. . تقفون طوابير على صناديق القمامة. . هاو. . حتى أصبحتم قمامة. . هاو. . هاو. . ابتعدوا عن

طريقي.. ابتعدوا.. اني أنبح وأعض.. عرفت نفسي فلماذا تأخرتم؟ هاجمني السعار فلماذا تركتم؟.. السعار في الهواء.. تشجعوا وجربوا.. ها أنا أزحف على أربع.. أعض الارض.. أعض الحجر.. أعض الطين من منكم أحبابي؟ الكل ولا أحد بعينه؟. من منكم أعدائي؟. الكل ولا أحد بعينه.. السعار يزحف عليكم.. السيل سيجرفكم.. لن ينجو أحد منكم.. يا نوح.. أين أنت يا نوح.. أين أنت يا نوح!..

غريب : كان الجري قد أنهكه وأهلك الجموع التي جرت وراءه. لم يجسر أحد على الاقتراب منه أو الامساك به. والجنود الذين رأوه وسمعوه ذهلوا حتى عن اطلاق الصياح أو الرصاص أو الصفير.. كان منظره مرعبا عندما التفت من صلاتي في الزاوية التي نلتقي فيها فوجدته يسقط على الارض مغشيا عليه. وبدأ الناس يتحلقون حوله وهم يلهثون يتزاحم الصغار عليه: من أعداه وليس في المدينة كلاب؟.. يفرقهم الكبار بقسوة ويزمجرون: ابتعدوا عنه.. اتركوه للشرطة أو لحراس الحاكم.. وبرز من الزحام وجه خيِّل إليَّ أنه يعرفني وأنني أعرفه.. حدق في وجهي وحدقت في وجهه. تذكرت شبح المقبرة الذي كان يتبعني كظلي:

المخبر : أنت؟

غريب : التقينا قبل الآن..

المخبر : ولكننا لم نتعارف (يفتح بطاقته ويعرضها عليه خفية)

غريب : ما أنا الا عابر سبيل..

المخبر : يعجبني اعترافك..

غريب : ماذا تعني..

المخبر : أنت صاحبه..

غريب : وهو حبيبي . .

المخبر : هيا معي . .

غريب : وأخرج من جيبه قيداً كبَّل به يدى. . وشق طريقه بين العيون المتطلعة والاجسام المتكدسة والاطفال وولولة النساء. وفي صمت انحنى رجال الشرطة على صديقي فوضعوه في عربة «البوكس». وفي لحظة كنت في داخلها أشد على يد صاحبي وأضع صدره على صدري.

- ٦ -

التحقيق

(المكان الخالي الذي رأيناه في المشهد الاول. لكنه الآن قاعة في مستشفى، جدرانها بيضاء ناصعة، وفي الجانب الايسر منها مكتب صغير أمامه من ناحية كرسى يجلس عليه المحقق، ومن الناحية الاخرى كرسي آخر يجلس عليه من يجري التحقيق معه. يجلس بجوارهما الكاتب الذي يدون المحضر، ويقوم بدوره المخبر الذي سبق أن عرفناه. في عمق المسرح يبدو سرير سفري صغير، يرقد عليه المعلم المصاب وبجانبه الغريب. يساعده الغريب على ابتلاع لقمة ثم ينهض ويمشى خطوات نحو مقدمة المسرح. .)

غريب : انه لا يفيق من غيبوبته. حاولت الآن أن أدس لقمة في فمه، راح يبلعها وهو يزوم. أما الماء فقد منعوه عنه وحذروني منه بكل شدة. ما مصيره يا ترى؟. هل يفيق من هذه النوبة ويرجع معلم النحو كما كان؟ أصر المحقق أن يبدأ به. شرحت له حالته التي عجز أمامها الاطباء. لكنه صمم على رأيه. بللت وجهه بالماء وأسندته على كتفي حتى جلس على الكرسي. وسأله المحقق بعض الأسئلة قبل أن ييئس منه:

صوت المحقق: اسمك؟

المعلم : هاو هاو. .

صوت المحقق: عمرك؟

المعلم : (في ألم شديد كأنها آهة طويلة) هاااو . . هاااو. . هاااو. .

صوت المحقق: أين عضك الكلب؟

المعلم : هاو هاو. .

صوت المحقق: في المدينة أو خارج المدينة؟

المعلم : هاو . . هاو. .

صوت المحقق: هل لديك أقوال أخرى؟

المعلم : هاو هاو هاو هاو. . .

صوت المحقق: (للكاتب) ولما كان المصاب عاجزا عن التوقيع على أقواله، فقد اكتفينا بذلك، وأمرنا باستدعاء زوجته وابنه لسؤالهم عن معلوماتهم عن الحادثة . .

غريب : وساعدته مرة أخرى حتى رجع الى سريره. وجلست بجانبه انتظر نهاية التحقيق كما أنتظر مصيري . نسيت أن أقول لكم انهم فكوا القيد الذي وضعوه في يدي حتى يبت في أمري، لان المستشفى يحوطها الحرس من كل ناحية ولا تخلو منهم قاعة ولا طريق ولا دورة مياه. .

ونادى المحقق على الزوجة فأقبلت كالأرنبة المذعورة التي دخلت في جلد نمرة:

المحقق : اسمك؟

الزوجة : مفيدة أحمد منصور. .

المحقق : عمرك؟

الزوجة : ثلاث وخمسون سنة. .

المحقق : ما معلوماتك عن حادثة زوجك مأمون أمين مأمون؟

الزوجة : كنت يوم الجمعة أجلس في أمان الله مع الاولاد. ودخل مأمون متأخرا وجلس أمام المائدة وأخذ يتناول عشاءه من طبق شوربة عدس دافئة،

لاننا كنا قد انتهينا من عشائنا قبل قليل. وأخذنا نتابع حديثنا عن الدنيا والاحوال عندما فوجئنا به ينحني على طبق الشوربة ويلعقه بلسانه وهو يكشر عن أسنانه. بعد ذلك أخذ يتلوى وينبح، فخفت وجريت الى حجرة النوم وأغلقت الباب بالمفتاح..

المحقق : والاولاد.. ماذا فعلا؟

الزوجة : لا أعرف.. لكنني سمعتهما يضحكان..

المحقق : يضحكان؟ استمري. ماذا حدث بعد ذلك؟

الزوجة : قلت لك انني أغلقت باب حجرة النوم بالمفتاح..

المحقق : ولكنك سمعت على الاقل..

الزوجة : نعم سمعت باب الشقة يفتح ويغلق بعنف شديد. ثم سمعت بعد ذلك أنهم قبضوا عليه وهو ينبح في الشارع..

المحقق : ألم تفكري في الخروج وراءه؟

الزوجة : ولماذا أخرج وراءه؟

المحقق : وأولادك..

الزوجة : لا أعرف. لم أجدهما فقط.

المحقق : ألم تسأليهما بعد ذلك؟

الزوجة : نسيت..

المحقق : وماذا فعلت عندما علمت أن زوجك قبض عليه؟

الزوجة : وماذا كنت تريد مني أن أفعل؟

المحقق : أنا الذي أسأل يا «ست» مفيدة..

الزوجة : لم أفعل شيئا طبعا..

المحقق : وما رأيك فيما حدث؟

الزوجة : وما الذي حدث؟

المحقق : السعار الذي أصيب به..

الزوجة : رأيي أنه كان مصاباً به باستمرار..

المحقق : هل سبق أن نبح أحدا أو عضه؟..

الزوجة : من الطبيعي أن الكلب ينبح ويعض..

المحقق : تعلمين أن مدينتنا بلا كلاب. ألم تحاولي أن تسأليه..

الزوجة : ولماذا أسأل؟. طول عمره كلب وابن كلب.

المحقق : السعار مرض لا يأتي الا بالعدوى..

الزوجة : مدينتنا رعاها الله بلا كلاب.

المحقق : ولكن لابد أن يكون عضه كلب. فأين قابل زوجك الكلب الغريب، أو أين قابل الكلب الغريب زوجك؟

الزوجة : لا أعرف..

المحقق : هل سافر زوجك خارج المدينة؟

الزوجة : لا أعرف..

المحقق : هل استقبل ضيفا غريبا في بيته؟

الزوجة : لا اعرف..

المحقق : هل لديك أقوال أخرى؟

الزوجة : لا..

المحقق : اذن وقعي هنا. (للكاتب) وتم اقفال المحضر في الثالثة وعشر دقائق، وأمرنا باستدعاء الابن والابنة لسؤالها (تنهض الزوجة قائمة وتنصرف)

غريب : (يتقدم) باب التحقيق سيقفل بعد قليل. واقوال الابن والابنة لا تختلف كثيرا عن أقوال أمهما. ولما كنا نخاف عليكم من التطويل، فقد اكتفينا بالمواضع المهمة في التحقيق معها. أما تفاصيل المحضر فيمكن الاطلاع عليها في سجلات المحكمة مقابل عشرة قروش.

سأل المحقق الابن مأمون الذي يعمل مهندساً ورجل أعمال هذا السؤال الهام بعد أن وجه اليه الأسئلة النقليدية:

المحقق : ألم تلاحظ عليه أية أعراض غريبة في الايام الاخيرة؟

الابن : أنا في العادة لا ألاحظ وجوده على الاطلاق. ولكن (مفكرا)

المحقق : ولكن ماذا؟

الابن : أذكر انني رأيته يبتسم منذ أسبوع أو أسبوعين..

المحقق : متأكد انك رأيته يبتسم؟

الابن : تماما.. حتى انني خفت عليه وخفت منه..

المحقق : وما الذي دعاك للخوف؟

الابن : لا أعرف بالضبط.. ولكن كان تصرفه غير طبيعي.

غريب : هذا هو أهم ما قاله الابن. أما ما عدا ذلك فكل أقواله تؤكد أقوال الأم. فقد ضحك هو وأخته عندما سمعا أباهما ينبح، لأن منظره كان مضحكا، كما أنه ـ مثل أمه ـ لم يفكر في الخروج وراءه لمنعه من عض الناس أو لاعادته للبيت. أما أخته:

(تتقدم الابنة وتجلس على الكرسي أمام المحقق)

المحقق : وماذا فعلت عندما رأيت أباك ينبح ويخرج الى الشارع؟

الابنة : أسرعت خلفه طبعا. لم أضيِّع ثانية واحدة..

المحقق : حاولت أن تمنعيه من أن يعض الناس وينشر العدوى؟.

الابنة : أمنعه؟ وهل أنا طبيبة في البلدية؟ انني صحفية يا سيدي..

المحقق : آه. نسيت انك قلت هذا من قبل. ولماذا أسرعت خلفه اذن؟

الابنة : أسرعت خلفه بالكاميرا لألتقط بعض الصور. وبالفعل التقطت صورا نادرة.. أنا متأكدة أنها ستثير ضجة هائلة عندما تنشر غدا في مجلة «الانسان الجديد».. رجل يتحول فجأة الى كلب وينبح الناس ويعضهم.. والناس تجري وهو يجري خلفهم.. وينبح ويعض.. ويعض وينبح.. ألا ترى معي انه موضوع صحفي من الطراز

الأول.. خصوصاً في مدينة خالية من الكلاب؟

المحقق : أنا من رأيك فعلا..

الابنة : وأن أنفى صحفية بالفطرة؟

المحقق : وعيناك وشفتاك ووجهك..

الابنة : (تضحك ضحكة فاضحة) وساقاي أيضا.. أنظر.. على أحدث مقاييس الجمال.. كنت أعرف أنك شاب ذكي ولطيف. تفضل.

المحقق : ما هذا؟.

الابنة : هذه بطاقتي ورقم تليفوني..

المحقق : هل لديك أقوال أخرى؟

الابنة : كثير.. كثير..

المحقق : أقصد في موضوع السعار..

الابنة : وفي غيره وغيره..

المحقق : (بصرامة) اذن وقعي هنا...

غريب : وانتهى التحقيق كما رأيتم وسمعتم. كنت أشعر أنه سينتهي على وجه السرعة، وكانت المدينة كلها تشاركني نفس الشعور. صحيح أن الخبر لم يعلن، وكل الصحف والاذاعات ووكالات الانباء تكتمته وكفت عليه ألف ماجور. ولكن أنباء الكوارث تتسرب وتنتشر كالدخان. وتشخص الابصار الى نهاية الكون. وتتعلق الانفاس بكل بادرة. وتتوقف الحياة كأنها تحتضر. عكف المحقق بعض الوقت على محضر التحقيق. وأسرع المخبر اليه وهمس لحظات في اذنه. ثم انطلق الصوت الغامض المجهول من مكبر الصوت: هنا ادارة المدينة. هنا الادارة العليا. مدينتنا بلا كلاب. الاشاعة المسمومة لابد أن تتبدد كالفقاعة. ماذا فعلت أيها المحقق؟ أين التقرير؟ لم هذا البطء في التحقيق من اشاعة كاذبة، اشاعة تافهة لا يصدقها الاطفال. الحاكم

ينتظر. المدينة كلها تنتظر. ليس عندنا وقت. نحن نبني الانسان الجديد. ليس عندنا وقت. . ليس عندنا وقت.

غريب : وأسرع المحقق يرد وهو يلهث:

المحقق : نعم. نعم. صدقتم يا سادتي؟ اشاعة كاذبة وتافهة.

الصوت المجهول: اقرأ التقرير!

المحقق : في الحال. سأقرأه في الحال! وبما أن مدينتنا كما هو ثابت ومعروف خالية من الكلاب. وبما ان المسعور ـ كما هو ثابت ومعروف ـ رجل فقير وضعيف ولم يسافر الى خارج البلاد كما أتضح من أقواله. . معذرة. . كما اتضح من اقوال الشهود، فانني ارى أن الكلب ليس كلبا، وأن الأمر كله مجرد مزاح سخيف، ونكتة بذيئة. .

صوت من الجمهور : أحتج! كيف تكون مجرد نكتة بذيئة ومزاح سخيف. . نكتة بذيئة ومزاح سخيف؟

صوت آخر : هذه بذاءة وسخف

غريب : (يهرول الى مقدمة المسرح) أرجوكم. . أرجوكم. .

صوت ثالث : هل تركنا بيوتنا لنسمع نكتة؟

صوت رابع : انها مأساة. . مأساة. .

صوت خامس: مأساة مضحكة. .

صوت سادس: رأيي انها مهزلة. .

صوت آخر : مهزلة مبكية. . أين الرقابة؟

صوت : وأين الاحترام الواجب لعقول الناس؟

غريب : انتظروا. . ارجوكم انتظروا. . التقرير لم يكتمل. .

صوت : أليس هذا ما قلته في البداية؟

غريب : نعم. نعم. وهذا ما أقوله الآن..

صوت : نريد الحقيقة!

غريب : وأنا أيضا أريدها.. أنا نفسي أدعوكم للبحث عنها..

أصوات : أعطوهم فرصة..

أصوات : الصبر «يا هوه»...

صوت : هاو.. هاو.. هوووه!..

غريب : تفضل يا حضرة المحقق.

المحقق : ويؤكد هذا الرأي ما ثبت لنامن كلام الشهود من أنه معلم قديم ورب أسرة. وهو مثل غيره من آلاف الناس في آلاف الاسر، في مدينتنا وفي سائر المدن، لا يستبعد أن يلجأ لهذا المزاح السخيف من باب التسلية..

صوت من الجمهور تسلية؟ كل هذه تسلية؟

صوت آخر : لا نريد التسلية.. نريد المسرح الجاد..

صوت ثالث : نريد الحقيقة..

صوت رابع : هل انتهى التحقيق؟

غريب : أرجوكم.. أرجوكم.. انتهى التحقيق ولم تنته القضية..

صوت من الجمهور : وماذا بقى منها؟ الرجل الآن في المشرحة..

غريب : معك الحق.. الرجل في المشرحة.. والقمر في السماء.. (يسمع صوت نباح كلاب في الخلفية)

صوت آخر : والكلاب ماتزال تنبح..

غريب : أجل.. أجل.. مع ان مدينتكم بحمد الله خالية من الكلاب.. أما كلبنا المسكين فقد تكلم..

أصوات : تكلم؟

أصوات : عشنا وشفنا الكلاب تتكلم..

صوت : وتمثل وتنطق بالحكم..

صوت : هاو.. هاو.. ه.. م م..... (ضحك)..

غريب : أرجوكم.. اسمعوه قبل أن يموت.. هذه آخر رغبة في نفسه.. يا مأمون.. يا مأمون.. معذرة.. نسيت أنه محبوس في حجرته.. لابد أن أذهب اليه وأساعده.. لحظات.. لحظات وأرجع لكم..

- ٧ -

البكاء على الصدر

(غريب يظهر وهو يجر عربة بيضاء ذات عجلات مما يستخدم في نقل المرضى. يتكلم وهو يهز العربة للامام والخلف.. بعد التمهيد يتجه الى حجرة المعلم ويأتي به على المسرح.. يلاحظ ان ايقاع المشهد يتسق مع ايقاع الموت التدريجي للمريض..)

غريب : لا.. لم تنته القضية. تم التحقيق ومازالت القضية مفتوحة. وعشت مع صاحبي عشرين يوما في المستشفى، أطعمه وأجفف دموعه وشفتيه، وأمدده على الفراش، وأشاركه صمته وبحته وغصته. كان علينا ان نبقى تحت الملاحظة والعلاج. حبسوه وحبسوني حتى يتأكدوا من وجود السعار أو عدمه. أخذوا العينات وأعادوا التحليل مرة ومرة. الاطباء والممرضون والممرضات يدخلون علينا ويخرجون. الشفاه تمتد الى الآذان والاسرار تطير في الهواء والحرس يروحون ويجيئون على الابواب. طالت فترات صمته في الايام الاخيرة. جرت الدموع في عينيه وتساقطت أكثر من مرة. بدأت أفهم نظراته الخرساء اليَّ. تعلمت كيف أترجمها الى كلمات، وأحول شهقاته وزفراته وبحاته الى عبارات. عبارات تصف وتشكو وتتألم، وأحيانا تثور وتغضب وتدعو

للانتقام. (الاطباء والممرضون والممرضات يدخلون أثناء الحديث ويخرجون. يجسون النبض أو يقيسون الحرارة أو يأخذون عينة دم أو يقتحمون العيون ويفحصونها.. الخ المريض يخرج أصواتا مبهمة، ممدودة أو متقطعة، تشبه الصفير الخارج من ناي الحنجرة المشقوقة أو من شعب الصدر المأزومة، وأحيانا تبدو كأنها دمدمة أشباح أو زمجرة أسود أو مواء قطط. غريب ينقلها أولا بأول الى كلمات وعبارات مفهومة، خصوصا وأن المريض يتمكن في أحوال قليلة من نطق حروف مهشمة من كلمة أو جملة... المريض تخرج منه أصوات هادئة.. يفهمها غريب أولا ثم يحولها الى حروف وكلمات..)

غريب : كل شيء ينتهي يا غريب. الصداقة والمرض والعمر.. تمنيت لو انتهيت على صورة أخرى، لكنني رضيت دائما وأنا الآن راض. كل شيء سينتهي كما بدأ. وعجلة الميلاد والموت لابد أن تتوقف. نعم يا غريب. رضيت وسلمت. ستين عاما وأنا راض ومسلِّم، اللقمة الفقيرة، والكسوة الحقيرة، والرغبة الكسيرة. هل سمعت عن الخَلَد أو السنجاب؟ عن جمل أو أسد ينكمش قليلا حتى يصبح فأرا أو أرنبا؟ يدخل جحره ولا يخرج بحثا عن رزقه الا بعد أن يطل برأسه ويطمئن. وها هم حكموا عليَّ أن اصبح كلبا.. لكن المدينة خالية من الكلاب. (يسمع من بعيد صوت نباح يتعالى شيئا فشيئا أثناء المشهد) أنا راض أيضا. لكي لا يكون أولادي كلابا. لكي لا يعامل الصغار والذين الذين سيولدون بعدنا معاملة الكلاب (يتردد النباح) هل جربت يا غريب أن تمشي في الظل؟ أن تتخفى بجوار الحائط؟ هل جربت أن تعيش بجانب أمرأة تبغضك ويصفر وجهها وتنطفىء عيناها كلما رأتك؟ كل نظرة من نظراتها تقول لك: متى أستريح منك؟ (تظهر الزوجة بملامحها القاسية وهي تصيح:)

الزوجة : كلب ابن كلب.. (المعلم يتشنج ويتلوى فينحني عليه غريب ويمر

بيديه على وجهه وذراعيه وساقيه ـ تنتحى الزوجة ناحية اليسار وتقف)

غريب : هل جربت أن تتحمل البذاءة التي يقذفك بها أقرب الناس اليك؟ تتوالى عليك حجارتها كل يوم، في البيت والعمل والشارع والدكان، حتى في الخلاء يتذبذب بها الهواء ويتخلخل؟ (يظهر الابن والابنة.. تتبعهما ناظرة المدرسة)

الابن : (لأخته) أبوك أصبح مسخة..

الابنة : يضحك الناس علينا ولا يضحك أبدا..

الابن : تصوري أنني رأيته يبتسم من أسبوعين؟

الابنة : لابد أنه حلم بقبض المعاش..

الابن : «البقشيش» الذي أعطيه «للبارمان» أكثر منه..

الابنة : مشكلتي الآن هي كيف أقدمه لخطيبي..

الابن : بسيطة. خطيبك يقدم له عظمة... (يضحكان ويقفان بجوار أمهما...)

غريب : ترى هل فهم شيئا مما دار حوله؟ ظل سادرا في ضبابه حتى ظهرت ناظرة المدرسة وهي تسب وتلعن. تلوى وتأوه وغطى عينيه ثم أشار اليها مذعورا بينما أخذت تصيح:

الناظرة : نظرتي في الناس لا تخيب.. من الأول أدركت.. من أول يوم عرفت أنه قرد أو كلب. ليتني بلغت الشرطة عنه. ليتني.. (تنضم الى الصف الذي يضم الأم والابن والابنة وتقف متحفزة للصياح أو الهجوم.. وفجأة تتشابك أيديهم وأذرعهم ويرقصون رقصة الاشباح وهم يغنون بأصوات صاخبة..)

الابن : نحن رجال المال! رجال الأعمال!
نلعب بالدولار وبالدينار

وبالبيضة والحجر على حسب الأحوال

الأبنة : أهوى اللذات المشروعة

واللذات الممنوعة..

أطمح للشهرة والمجد الساطع

وأحب ظهوري في الصورة

كالنجم اللامع..

ناظرة المدرسة: : أنا راهبة العلم وأفتح معبده لزيارة كل الناس من يدفع أكثر أدخله قدس الأقداس

الأم : أسرع يا ولدي لا تبطىء / أعطيني «الشيك»

فغداً ننتقل الى «الفيلا / وغدا نفتتح «البوتيك»...

(تتشابك أيديهم ويسرعون بالرقص وهم يغنون:)

المال المال .

المجد المجد .

أعطيني «الشيك» .

«الفيلا والبوتيك».

سبح «للمرسيدس». واركع «للبيجو» .

اصعد للقمة فوق رؤوس الضعفاء.

والعق أخذية السلطة، كل الاحذية سواء.

سبح للدولار .

واركع للدينار .

المال المال .

المجد المجد .... الخ

غريب : أخذ يتلوى بشدة. . فهمت منه أنه يريد أن يقول: هل جربت أن تنزع كرامتك كما ينزع جلد المسلوخ؟ وأن يتفرج الناس على دمك المنزوف

ويتطوعوا كذلك بشهادة الزور؟ في المدن الاخرى تدان المدينة كلها لو جرح انسان واحد وفي مدينتنا التي خلت من الكلاب. . . صار البشر. . لا. . . صرت أنا وحدي. . . تلوى بقسوة ووحشية. هب من جلسته فحاولت بكل قوتي أن أعيده الى الكرسي. ومددت يدي فشددت رباط الحزام. لكنني في لحظة كالرعد أو البرق أبصرت شمشون يهدم المعبد ويصرخ بين الانقاض. انطلق ينطح الحيطان ويتلوى وينبح ويزحف على أربع، ثم يقوم على قدميه ويخبط على الكراسي والنوافذ والجدران كعملاق مجنون أو جمل غاضب يهدر ويسيل الزبد من شدقيه. كانت صرخاته المتقطعة تكاد تنطق: ماء. . أريد أن أشرب. . لكن التعليمات كانت مشددة. والممرضون أسرعوا فشدوا وثاقه بالحبال. . بعد قليل مرت العاصفة ورأيته ينظر اليَّ ويبتسم. كانت في نظراته دعوة للقرب منه. . اقتربت فأشار الى أذني. ملت على فمه فقال: هذه وصيتي. . وظل صوته يتحشرج ويصفر ويشهق وينهج بالبكاء. انحنيت عليه وأسندته الى صدري ورحت أحول نباحه وعواءه الى حروف وكلمات: وصية كلب لمدينة بلا كلاب. سيأتي يوم تغيب فيه شمسك. سيأتي ليل يختنق فيه قمرك. أنظروا!. . ها هو النور ينطفىء، والنواقيس تجن، والابراج والمآذن والعمائر تتداعى وتنهار. السحب تلبدت في السماء. والبرق ارسل النذير. الساعات توقفت. والمدينة انكفأت على ظهرها وراحت تحتضر. تعاوت الكلاب والذئاب من كل ملَّة على الجثمان العجوز المهيب. زحفت السيول من كل اتجاه. وغرق نوح مع سفينته فلم تنج الا الفئران. والفئران انقضت عليها جوارح النسور والصقور. أيتها المدينة التي تزينت بالانوار الصاخبة والاصباغ الكاذبة. أيتها العجوز التي ارتمت في أحضان العشاق المزيفين. وضعت في يديك سلاسل العبودية وأبحث كنوزك للجلادين والدجالين. قطعوا ثدييك ومزقوا

لحمك وألقوه للكلاب. نزعوا عيونك وسلموها للصوص الآثار. أغووك بالحلى والخلاخيل المزيفة فسقطت في مستنقع الديون. سلخوا جلدك فمشيت عارية بين الشعوب. قبحوك باسم الجمال، شوهوك باسم الفن، جوّعوك باسم العدل، مصوا دمك باسم العلم، رجموك وصلبوك وخنقوك باسم الايمان، وانفردوا بك في الظلام ومزقوا ظهرك بالسياط. انطفأت شمس الحقيقة في سمائك وغابت عنها نجوم القوانين. افتحى عينيك أيتها العجوز. قاومي السيل وطاردي الكلاب.. طاردي الكلاب! طاردي الكـــــلاب!..

لم تبق منه سوى أنفاس لاهثة في صدر يعلو ويهبط. سقطت ذراعاه على جانبي الكرسي وتلوى لحظات بلا صوت وأغمض عينيه. جففتُ العرق على جبينة ووجهه ومسحتُ الزبد المتراكم على شفتيه. رفعت رأسي فرأيت الطبيب والممرضين والمخبر والمحقق يقفون على رؤوسنا. قال الجميع بصوت واحد: مات. سحب اثنان من الممرضين العجلة البيضاء ومددوه على محفة وقالا: مات. دوت مكبرات الصوت ونادى صاحب الصوت الغامض المجهول: مات الكلب الوحيد. أيها المحقق! أغلق باب التحقيق... وأمسك المحقق بورقة طويلة أخذ يقرأ منها:

المحقق : بعد إعداد التقرير السابق مات المسعور في المستشفى. علمت من صاحبه الغريب أنه في الايام الاخيرة كان يخاف الماء ويسيل الزبد من شدقيه. وعلمت أيضا من الاطباء الذين أشرفوا على علاجه أنهم وجدوا عنده أعراض المرض ولكنهم لم يجدوا المرض نفسه. غير أن المرض والأعراض لا أهمية لهما مادام المريض نفسه قد مات. وبموته سقطت الدعوى نهائيا وأغلق باب القضية..

صوت من الجمهور ولكن القضية لم تنته..

غريب : المحقق والحاكم أغلقا الباب..

صوت ثالث وأنت؟ ماذا ستفعل؟

المحقق : نسيت الملحق المضاف للتقرير. . (يقرأ)

أما عن صاحبه الغريب فقد ثبت بعد مراقبته عشرة أيام أنه لا يحمل العدوى، كما ثبت أيضا أنه لا يتجسس لحساب مدينة أخرى، فهو شيخ غريب وعابر سبيل فقير، لذلك رؤى أن يكتفى بإبعاده. .

صوت : والحقيقة؟ ماذا عن الحقيقة؟

صوت : نريد أن نعرف. . ؟

صوت : هل المدينة مسعورة والذي مات هو الانسان الوحيد. .

صوت أم هو المسعور والمدينة خالية من الكلاب؟

أصوات الحقيقة! نريد الحقيقة!

غريب : أسألوا أنفسكم. . ابحثوا عنها بأنفسكم. .

صوت : وأنت؟

غريب : لا مفر. اليوم قبل غروب الشمس. .

صوت : الى أن تذهب؟

غريب : الى مدينة أخرى (يتقدم المخبر ويضع القيد في يديه. يمدّ يده بالسلام، يتذكر القيد، يحييه برأسه ثم ينصرف. الغريب ينظر للسماء ويقول وهو يتقدم للجمهور. .)

غريب : القمر ما يزال في السماء. . والكلاب ما تزال تنبح. . ولكنها لن تعضه. لن تعضه. .

بينما يتردد صوت يتلو بيت الشعر الآتي محاولا أن يعلو فوقها:

لقد نبحوني وما هجتهم

فما أدركوا غير ضوء القمر

(يعاود الراقصون رقصهم ويستأنفون الغناء بصوت قوي ينافس أصوات الكلاب التي تتداخل مع أصوات الغناء والرقص على إيقاع الأبيات التي سمعناها من قبل ولكن على غير الترتيب السابق:

صوت : المال المال
المجد.. المجد..
صوت : أعطيني «الشيك»
«والفيلا» «والبوتيك»
صوت : نحن رجال المال.
رجال الأعمال
نلعب بالدولار وبالدينار
والبيضة والحجر على حسب الأحوال
صوت : نرهن أنفسنا من أجل ريال
صوت : المال المال
صوت : سبِّح للدولار
واركع للدينار
صوت : «للمرسيدس و البيجو»
صوت : واصعد للقمة فوق رؤوس الفقراء
صوت : فوق رقاب الضعفاء
صوت : والعق أحذية السلطة..
صوت : كل الأحذية سواء
صوت : المجد.. المجد.. المجد..
صوت : المال.. المال.. المال..
صوت : أعطيني الشيك.. والڤيلا والبوتيك..